انتصاراته إلى مصر كللها المصريون بالفرح والابتهاج ، فكتب له العلماء ورؤساء فرق الجيش يطلبون عودته ، وما كادت تصله الدعوة حتى جمع مماليكه وقدم إلى مصر دون اهتمام بالعواقب .

وأثناء عودته تقابل مع أبى الذهب عند الصالحية ، واشتبكت جيوشه مع جيش أبى الذهب ، وانتصر فى مبدأ الأمر ، ولكن لكثرة جيوش أبى الذهب (١٢ ألف مقاتل) تغلبت على فلول جيش على بك التى لم تزد عن خمسة آلاف مقاتل ، وعبثا حاولت حاشية على بك إقناعه بالهرب والنجاة بنفسه ، فرفض الانسحاب ، وظل يقاتل حتى أصيب بجرح فى رأسه وسقط عن جواده ، فأسر وحمل إلى مخيم محمد بك أبى الذهب الذى خرج وتلقاه بغاية التأثر والاحتفاء ، وقبل يده واحتضنه ، وحمله من إبطه حتى أجلسه بصيوانه ، بكل إحترام وإجلال ، وبكى من فرط تأثره بسقوط سيده وأستاذه السابق ، ثم نقل على بك إلى القاهرة ، ومات بعد أيام من إصابته فى ٨ مايو سنة ١٧٧٣ .

وبوفاة على بك أسدل الستار على المحاولة الأولى للتخلص من سيادة العثمانيين والتى نجح فى إتماها محمد على باشا . وطوى الزمان صفحة جليلة من كتابه فيها ذكرى عطرة .

نهاية أبى الذهب :

لم يستفد هذا المجرم من نتائج عمله ، فإنه لم تكد تركيا تعترف به شيخا للبلد ، حتى خرج لمحاربة الظاهر عمر واستخلاص البلاد التى تحت يده ، حتى أصيب بالحمى ومات فى ١٧٧٥/٦/٨ ، فى الوقت الذى وافقت تركيا على إعطائه الباشوية لولاية مصر ، فلم ينل الرتبة ، ولم يتمتع بولاية مصر ، ومات مغضوبا عليه ومذكورا بالسوء مدى الدهر .